

## وجعلت قرّة عيني في الصلاة

الحمد لله الذي ملأ قلوب أوليائه بمحبته، واختصّ أرواحهم بشهود عظمته، وهياً أسرارهم لحمل أعباء معرفته. والصلاة والسلام على سيّدنا ومولانا مُحَمَّد منبج العلوم والأنوار، ومعدن المعارف والأسرار، إمام المرسلين وقائد ركب العارفين، صلاةً وسلاماً يليقان بمقامه الكريم وشرفه العظيم.

ورضى الله تعالى عن أصحابه الأبرار وأهل بيته الأطهار، وكلّ من آمن به وأتبع سنته إلى يوم البعث والتلاق.

قال الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ \* قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا \* نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا \* أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا \* إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا \* إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا \* إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا \* وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا }.

إنّ سيّدنا مُحَمَّد رسول الله ﷺ قد نال أشرف مقامات العبادة وأقربها إلى الله تعالى زُلْفَى فهو سيّد العبادة، وإمام العباد.

قال تعالى: { ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين }.

فقد أمره الله تعالى في هذه الآية بأربعة أشياء: (التسبيح، والتحميد، والسجود، والعبادة مُدّة حياته ﷺ).

أمّا التسبيح: فهو تنزيه الله تعالى عمّا لا يليق. وأمّا التّحميد: إثبات الحماد له والكمالات اللاتقة به. وأمّا السجود: فهو كناية على كثرة الصلاة، وأيضاً: فيه تنبيه إلى أفضلية السجود كما صحّ أنّ النبي ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثرُوا الدعاء» رواه مسلم.

وأما العبادة: فقد أمره بها مدّة بقائه حيّاً " أي: دُم على العبادات ما دُمّت حيّاً من غير إخلالٍ بها لحظةً "، وذلك لأنّ العابدَ مهما ارتفع مقامه في العبادات لا يستغني عن عبادة ربّه تعالى، ولا يسقط عنه الأمر التّكليفيّ بالعبادة ما دام حيّاً عاقلاً. فالعبادة هي: التّقرّب إلى الله تعالى بأقصى غايات الخضوع والتّذلّل له سبحانه فيما شرعه له من الأقوال والأعمال القلبية والبدنيّة والحاليّة.

وللعبادة لذةٌ وحلاوةٌ، ونعيمٌ وطلاوةٌ، فمن طعم حلاوتها وذاق لذتها تعلّق بها وعشقتها، فهو لا ينفك عنها أبداً؛ لأنّها تصير روحه وريحانه. وإنّ أعظم ذائق ذاق حلاوتها، وأكثر من نعم بها وشهد أسرارها وأنوارها هو سيّدنا محمّد ﷺ إمام العباد وسيّد الصّالحين، فقد كان له ﷺ أكمل ذوق لحلاوة العبادات، وألذّ راحةٍ ونعيمٍ بها كما ورد أنّ النبيّ ﷺ قال: «قم يا بلال أرحنا بالصّلاة».

وعليه: فالصّلاة هي أجلُّ ما يُتحفّ الله تعالى به عباده ويهديهم إليها، وفي الحديث، أنّ رسول الله ﷺ قال: «ما أوتيّ عبدٌ في الدّنيا خيراً من أن يؤذَنَ له في ركعتين يُصلِّيهما» فيها يحصل لهم الخلوة معه والانفراد بالمجالسة والانقطاع إليه، وفيها يرتفع عن قلبهم الحُجب والأستار، ويتجلّى فيها حقائق الأسرار، وتُشرق فيها شوارق الأنوار، وفيها تكون المناجاة والمصافاة، وهي صلةٌ بين العبد وبين ربّه ﷻ.

قال محمد بن عليّ التّرمذي رحمه الله تعالى: ((الصّلاة عماد الدّين، وأوّل شيء فرضه الله على المسلمين)).

وفي الصّلاة إقبال الله على العبيد ليُقبلوا إليه في صورة العبيد تذلُّلاً وتسليماً، وتبدُّلاً وتخضعاً وتخشعاً وترغيباً وتملّقا، فالوقوف: تذلّل، والتّكبير: تسليم، والثّناء والتّلاوة: تبدّل، والرّكوع: تخضع والسُّجود: تخضع، والجلوس: ترغيب، والتّشهد: تملّق، فأقبال العبيد إلى الله بهذه الصّورة ليُقبل الله عليهم بالتّرحم والتّعطف والتّقبّل. ولأجل هذه الفوائد كانت الصّلاة مفرغ ذوي الفاقات، والضّرورات من أرباب القلوب، فيغنيهم وجودها عن كلّ مرغوبٍ ويتسلّون بها عن كلّ محبوبٍ؛

لذلك ورد في المسند وغيره أنّ النَّبِيَّ قَالَ: «إِنَّمَا حُبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا: الطَّيِّبُ وَالنِّسَاءُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ».

ولتقف سوياً مع هذا الحديث الشريف وما يكتنفه من المعارف والأسرار التي احتضت بها سيّدنا وحبينا محمدٌ ﷺ.

فأقول: قُرّة العين عبارة عن الرّوح والرّيحان، وكمال النّعيم واللذّة التي تحصل من غاية الموافقة والملاءمة، فهي كناية عن شدّة الفرح؛ لأنّ بكاء الفرح دمه بارد.

والقُرّة: هو البرد الشّدِيد، يقال: "أقرّ الله عينك" أي: أفرحك حتّى تبرّد عينك بدموع الفرح.

وقوله: "في الصّلاة" فيه تبيين إلى أنّ الظرفيّة "في" تقتضي أن تكون الصّلاة هي محلّ لتلك القُرّة، فهو صلوات الله وسلامه عليه لا تقرّ عينه بغير ربّه، فلا فرح له إلاّ به، ولا سرور له إلاّ في إقباله، قال الشّاعر:

له همم لا مُنتهى لكبارها وهمته الصّغرى أجلّ من الدّهر

له راحة لو أنّ معشار جودها على البرّ كان أندى من البحر

هذا وقد سئل ابن عطاء الله السّكندريّ عن معنى قوله عليه السّلام: "وجعلت قُرّة عيني في الصّلاة" هل ذلك خاصّ بالنّبيّ ﷺ، أم لغيره منه شرب ونصيب؟.

فأجاب رحمه الله تعالى: ((إنّ قُرّة العين بالشّهود على قدر المعرفة بالشّهود، فالرسول ﷺ ليس معرفة كمعرفته فليس قُرّة عين كقرّته.

وإنّما قلنا: إنّ قُرّة عينه في صلاته بشهوده؛ إذ هو صلوات الله عليه وسلامه لا تقرّ عينه بغير ربّه، وكيف وهو يدلّ على هذا المقام، ويأمر به من سواه بقوله: «اعبد الله كأنك تراه»

ومحال أن يراه ويشهد معه سواه)).

فقد نبّه ابنُ عطاءِ الله رحمه الله تعالى في هذا الجواب على أمرين:

الأمر الأوّل: بيان أنّ قرّة العين للمُصلي في الصلّاة مُتفاوتةٌ وتابعةٌ لمقدارِ معرفةِ المُصلي لإلهه الذي يتوجّه إليه ويشهده في صلاته، والمعرفة على قدرِ التّخلية و التّحلية، ونظراً إلى أنّ سيّدنا رسولَ الله ﷺ أكثرُ النَّاسِ كلّهم معرفةً لله ﷻ، وذلك لأنّ أوّل قدمه في مقام الإحسان؛ إذ لا مجاهدة له ولا سير؛ لأنّه واصلٌ من أوّل قدم، "فنهايةُ الأولياءِ بدايةُ الأنبياءِ، ونهايةُ الأنبياءِ بدايةُ الرُّسُلِ" وبدايتهُ الرُّسُلِ من نهايةِ الرُّسُلِ، وعليه: فلا سيرَ له؛ لأنّ السيرَ في مجاهدةِ الأوصافِ المذمومةِ وهو مطهّرٌ منها.

خُلِقْتَ مُبَرَّراً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ

قال الشيخُ العارف أبو محمّد عبد العزيز المهدويّ رحمته الله ((وقرّة العين لا تكون مجاهد، ولا لمن يدفع الشيطان عنه، بل هي لمن استراح من المجاهدة والدفع)).

وأما السيرُ بمعنى التّرقّي، فهو ثابتٌ له على الكمال، فقد كان الرُّسُلُ يترقّى في السّاعة الواحدة مقاماتٍ، ويستغفّر من المقام الذي ترقّى منه.

وحكي عن الشيخ أبي الحسن الشاذليّ رحمته الله أنّه كان يستشكلُ قوله الرُّسُلُ «إِنَّهُ لِيُغَانُ عَلَيَّ قَلْبِي فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً» حتّى رأى النّبِيَّ ﷺ فقال له: يا مبارك، غيّنُ أنوارٍ لا غيّنُ أغيارٍ. ففهم حينئذٍ أنّ ذلك "العينُ" إنّما هو أنوار الشّهود.

وقال أبو العبّاس المرسيّ رحمته الله ((الأنبياء عليهم الصلّاة والسّلامُ خلّقوا من الرّحمةِ ونبينا الرُّسُلُ هو عينُ الرّحمة، قال تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ })).

ومن ثمَّ تَحَصَّلَ أَنَّ مَقَامَهُ فِي الْعِرْفَانِ لَا يُوَازِيهِ مَقَامٌ، وَكَذَلِكَ قُرَّةُ عَيْنِهِ ﷺ لَا يَنَالُهَا غَيْرُهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَرِبٌ وَنَصِيبٌ عَلَى قَدْرِ شَهْوَدِهِمْ وَمَعْرِفَتِهِمْ.

فَهِيَ رُبَّةٌ مَتَمِّزَةٌ اخْتَصَّ اللَّهُ بِهَا حَبِيبِهِ الْمَصْطَفَى ﷺ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «وَجَعَلْتُ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» أَي: مَيَّزَنِي اللَّهُ فِي ذَلِكَ بِدَرَجَةٍ لَمْ يُكْرِمْ بِهَا غَيْرِي.

الْأَمْرُ الثَّانِي: نَبَّهَ ابْنُ عَطَاءٍ اللَّهُ مِنْ أَنَّ الْمَصْطَفَى ﷺ إِذَا قَالَ: «وَجَعَلْتُ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» وَلَمْ يَقُلْ: «بِالصَّلَاةِ»، وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَصْدَرَ قُرَّةُ عَيْنِهِ فِي الصَّلَاةِ إِذَا هُوَ شَاهِدُهُ جَلَالٌ مَوْلَاهُ الَّذِي يَقِفُ فِي صَلَاتِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ إِذْ هُوَ ﷺ إِذَا تَقَرَّرَ عَيْنَاهُ بِشَهْوَدِ رَبِّهِ لَا بِشَهْوَدِ صَلَاتِهِ الَّتِي هِيَ مَدْخَلٌ وَ سَبِيلٌ لَشَهْوَدِ الْمَوْلَى ﷺ. وَلَوْ قَالَ: «جَعَلْتُ قُرَّةُ عَيْنِي بِالصَّلَاةِ» لَكَانَتِ الصَّلَاةُ إِذْنًا شَاغِلَةً لَهُ عَنِ اللَّهِ، وَحَاشَا أَنْ يُشْغَلَ بِوَسِيلَةٍ شَهْوَدِ اللَّهِ عَنْ شَهْوَدِهِ.

وَلَا أَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مِنْ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ مَعْنَى الْإِحْسَانِ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي يَرُويهِ مُسَلِّمٌ فِي صَحِيحِهِ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» إِذْ مَحَالٌّ أَنْ يَرَى الْعَبْدَ رَبَّهُ أَوْ أَنْ يَكُونَ فِي حَالَةٍ مِنَ الشُّهُودِ كَأَنَّهُ يَرَاهُ وَيَرَى مَعَهُ سِوَاهُ سِوَاءٍ كَانَ فِي صَلَاةٍ أَوْ غَيْرِهَا، إِذْ أَنَّ شَهْوَدَ اللَّهِ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَشْغَلَهُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ.

فَهَذَا هُوَ الْمَقَامُ الَّذِي ارْتَقَى إِلَيْهِ ﷺ مَقَامَ الشُّهُودِ لَا بِوَسِيلَةٍ لِأَنَّ مَكَانَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْقُرْبِ مَتَمِّزَةٌ سَامِيَةٌ لَمْ يَرِقْ وَلَا يَرِقْ إِلَيْهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ فَاقْتَضَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ فَرَحُهُ وَقُرَّةُ عَيْنِهِ بِشَهْوَدِهِ ﷺ وَهِيَ هَاتِ لِمَنْ يَتَمَتَّعُ بِشَهْوَدِهِ تَعَالَى أَنْ يُشْغَلَ بِسِوَاهُ أَيًّا كَانَ.

أَمَّا سَائِرُ النَّاسِ فَلَمَّا كَانَ الشَّأْنُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ أَنْ يَتَقَلَّبُوا فِي أَحْوَالٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وَأَنْ يَكُونُوا دُونَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الرُّتْبَةِ ذَكَرَهُمُ الْبَيَانُ الْإِلَهِيُّ بِالنِّعَمِ الَّتِي تَفَضَّلَ بِهَا عَلَيْهِمْ، وَأَمْرَهُمْ أَنْ يَفْرَحُوا بِهَا لِيَكُونَ ذَلِكَ سَبَبًا لِحُبَّتِهِمْ لِلَّهِ ﷻ وَمِنْ ثَمَّ سَبَبًا لَشَهْوَدِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾، أَي: قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ يَفْرَحُوا بِالْإِحْسَانِ وَالتَّفَضُّلِ، وَلِيَكُنْ أَنْتَ فَرَحَكَ بِالْمُتَفَضَّلِ.

وكذلك نحوه قوله تعالى ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾.

وعلى هذا يكون لأكابر أمته ﷺ قسطٌ من الفرح بالله دون من سواه، لكن لا يبلغون مقام الرسول ﷺ لأنّ شهوده لا يساويه شهودٌ فتكونُ قرّة عينه كذلك.

فهذا الذي دلّ عليه ظاهر قوله ﷺ: «وجعلت قرّة عيني في الصلاة»، وكان بعد قوله: «إنّما حُجِبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا الطَّيِّبُ والنِّسَاءُ»، ولا شك أنّ حبه لهذين الأمرين ليس على قياس حبّ غيره لهما، وإنّما ذلك لوجود الخاصية التي اقتضت منه ذلك، ونحن نرى أنّه أبيض له ما لم يُبَحْ لغيره من عدد الحرائر وأمن لأجل ذلك من وقوع مفسدة التباغض والتشاجر بسبب اجتماع الضرائر. واستعماله ﷺ الطيب وحبه له إنّما هو للقائه الملائكة التي تُناجيه، وإلا فهو في ذاته غني عن الطيب واستعماله كما قال أنس رضي الله عنه: «ما مسستُ حريراً ولا خزراً ولا ديباجاً ألين من كفّ رسول الله ﷺ، ولا شمتتُ رائحةً قطُّ مسكاً ولا عنبراً أطيب من رائحة رسول الله ﷺ».

فإذا كان حاله في هذين الأمرين على ما ذكرنا، مع أنّه لم يذكر فيهما سوى لفظ الحبّ وهما من لذات الدنيا، فكيف يكون حاله في الأمر الثالث؟ مع أنّه عبّر فيه بقرّة العين وهي غاية المحبّة، وهي من أعمال الآخرة.

وفي الختام: فقد أوحى الله تعالى إلى داود العليّ: ((يا داود قل للصّديقين: بي فليفرحوا، وبذكرى فليتنعموا)).

أسأل الله تعالى أن يجعل فرحنا وإيّاكم به، وبالرضا منه، وأن يجعلنا من أهل الفهم عنه، وأن لا يجعلنا من الغافلين، وأن يسلك بنا مسلك المتّقين بمنّه وكرمه.

والحمد لله ربّ العالمين.